تمهيد

إن تاريخ الإنسان إنما هو تاريخ لمحاولاته التعرفَ ثم السيطرةَ على العالم الخارجى من حوله ، وقد ناضل أولا القوى الحيوانية التى تحول بينه وبين هذه السيطرة ، ثم أخذ يناضل القوى الإنسانية ، فتكونت القبيلة ثم تكونت الأمة ، واندفعت من إقليمها إلى الأقاليم المجاورة تكتشف آفاقاً جديدة .

وكل هذه رحلات بدأت ضيقة ، ثم اتسعت مع مرّ الزمن . فالإنسان وُلد راحلا ، وإن أعجزته الرحلة : تخيل رحلات غير محسوسة فى عالم الخيال ، ونجد ذلك مبثوثاً فى الأساطير الأولى ، كما نجده ماثلا فى الحروب والفتوح القديمة ، وما سطره الملوك الأول فى مصر وغير مصر .

ومن المعروف أن ملوك مصر سجلوا رحلاتهم فى آسيا . وعلى جدران معبد الدير البحرى بمصر العليا تصاوير بديعة لسفن الملكة حتشبسوت من ملوك الأسرة الثامنة عشرة وهى عائدة من رحلتها إلى بلاد « بونت » فى الجنوب . وأكبر الظن أنهم كانوا يطلقون هذا الاسم على بلاد الصومال . وعلى نحو ما جابت سفننا البحر الأحمر جابت بحر الروم .

وكان للفينيقيين رحلات بحرية كبيرة خاضوا فيها عُباب المحيط الأطلسىّ وحطّوا رحالهم فى الجزائر البريطانية ، وأقاموا مستعمرات لهم على طول بحر الروم فى الجنوب وفى أسبانيا . وخلّفهم الإغريق يقيمون مستعمرات لهم فى البحر الأسود وفى بحر الروم ، وقد عُنوا عناية واسعة بوصف البلدان والأقاليم التى زاروها ، وقدموا لنا كثيراً من المعارف الجغرافية ، وهم أول من قال بكروية الأرض وبأن وراء البحار والمحيطات عوالم مسكونة ، تقطنها شعوب مختلفة

وأكبر رحّالة عرفه الإغريق « هيرودوت » الذى زار مصر وقبرص وفينيقيا وآشور وإيران وتوغل فى الشمال إلى البوسفور ، وأودع مشاهداته فى هذه الزيارات أو الرحلات تاريخه الكبير . وخلّفه طائفة من مؤرخى الإغريق حفلت كتبهم بأخبار الأمم المجاورة ، ولعل أهمهم « بلوتارك » الذى عُنى بتاريخ اليونان والرومان . ومنه استمد شكسبير كثيراً من مسرحياته .

وتصبح روما عاصمة العالم القديم ، ويتوغل أبناؤها فى إمبراطوريتها الواسعة ، وتصل سفنهم إلى جزائر كناريا فى المحيط الأطلسىّ ، كما تصل إلى الهند والشرق الأقصى ، ويطوفون بدولتهم فى إفريقية وآسيا ، ويجمعون من هنا وهناك أخبار الأمم المفتوحة فى أوربة وغير أوربة ، حتى يمكن أن يقال إن مؤرخيهم جمعوا لنا كل ما كان معروفاً عن سطح الأرض فى زمانهم . وفى مقدمة هؤلاء المؤرخين يوليوس قيصر الذى دوّن فى كتابه « التعليقات » حروبه فى الغال ، ووراءه كثير من مؤرخى الرومان ، يقصون الأسفار والرحلات ، ويصفون البلدان النائية ، وممن برعوا فى ذلك « تاسيت » الذى قصّ أحوال التيوتون الأوائل فى كتابه « جرمانيا » .

ونلتقى فى القرن الثانى للميلاد ببطليموس الإسكندرىّ ، وهو إغريقى الأصل ، وقد ترك كتابين فى الجغرافية والفلك . ونراه يدوّن وصفاً مفصلا للبلدان والأماكن فى عصره ذاكراً أطوالها وعروضها ، ومبيناً بالرسم مواقعها .

ثم جاء دور العرب ، وفتحوا الأرض من الهند والصين إلى المحيط الأطلسى وجبال البرانس ، ومن التركستان وجبال القوقاز إلى السودان ، وأصبح كل ذلك عالماً واحداً مشتركاً فى الدين والثقافة . ووصف مؤرخوهم مدنّ هذا العالم وبلدانه ، كما وصفوا سكانه . وكان ذلك إرهاصاً لما قام به علماؤهم وأدباؤهم من رحلات فى المستقبل ، اشترك فيها التجار وغير التجار .

وكان من أهم الأسباب فى تدوين هذه الرحلات حاجة الدولة إلى معرفة

الطرق الكبرى التى تصل أقاليمها ، ومن ثم ألّفت كتب كثيرة فى وصف المسالك والممالك . وهذه الحاجة السياسية اقترنت بها حاجة دينية ، إذ كان الحج إلى مكة فريضة على كل مسلم ، وكان المسلمون يتجشمون راضين كلّ مشقة فى سبيل أداء هذه الفريضة وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم فى المدينة . وعلى طول الطريق فى الشرق والغرب تقيم الدولة ويقيم أهل الخير الحُبوس والرُّبُطَ معونة للحاجّ ، ويصف كثير من هؤلاء الحاجّ طريقهم إلى الأماكن المقدسة فى كتب أو فى رحلات مختلفة .

وبجانب ذلك كان التجار يَضْرِبون فى أراض جديدة عن طريق القوافل ، وعن طريق البحر وسفنه ، وقد وصلوا فى مغامراتهم إلى الصين والهند وشواطئ إفريقية الشرقية والغربية جنوبىّ خط الاستواء ، واستطاعوا أن ينشروا الإسلام فى أندونيسيا وغيرها من الجزائر الهندية النائية . وما قصة « السندباد البحرى » الخيالية إلا صورة لمغامراتهم فى البحار الجنوبية .

وكانت السفارات لا تفتر بين الدول العربية والدول المجاورة من غربية وغير غربية ، وكانوا يسجلون ذلك فى رسائلهم ، وقد يرحلون حبا للاستطلاع كما رحل سلّام التّرجمان بأمر الخليفة الواثق (٢٢٧هـ / ٨٤١ م) للبحث عن سدّ الصين الكبير ، الذى يقال إن الإسكندر بناه بين العالم القديم وديار يأجوج ومأجوج .

ولهذه الأسباب مجتمعة كثرت الرحلات عند العرب وتنوعت بتنوع أسبابها وحوافزها السياسية ، والدينية ، والاقتصادية ، ونشأت عند كثيرين منهم محبة المجازفة فيما وراء المعروف ، حتى ليُظَنّ أن منهم من وصل إلى أمريكا قبل أن يكتشفها كولمبوس . وإن فى قصة الفتية المغرّرين من شَباب لشبونة التى رواها الإدريسى فى كتابه « نزهة المشتاق » ما يشير إلى ذلك ، فقد أوغلوا فى المحيط الأطلسى أو بحر الظلمات إلى مَسيرة شهرين من بلادهم ، ورأوا

جزائر وشعوبا غريبة . وليس من المصادفة أن يكون رائد ڤاسكو دى جاما فى اقتحامه بحر الهند من الرجاء الصالح عربىّ يسمى ابن ماجد

وتفتح الحروب الصليبية صفحة جديدة فى تاريخ أوربة ، ويأخذ أهلها فى تسجيل أسفارهم ورحلاتهم ، ولا يلبث مركو پولو أن يكتب رحلته المشهورة التى وصف فيها وصفا بديعا مشاهداته من بلده إيطاليا إلى صحراء جوبى وسهول منغوليا فى الصين .

ويجل القرن الخامس عشر انتصار البرتغاليين على المحيط الأطلسى المسمَّى بحر الظلمات أو الأوقيانوس ، فقد تتابعت بعوثهم تكشف مجاهله من جزائر وشواطئ مختلفة حتى وصلت إلى رأس الرجاء الصالح ، واندفع كولمبوس إلى الغرب ، فاكشف أمريكا ، واكتشف ڤاسكو دى جاما بحر الهند ، واستطاع ماجلاّن فى أوائل القرن السادس عشر أن يذرع البحار والمحيطات بأسطوله الشراعىّ ، ويُثبت كروية الأرض بالدليل العملىّ .

ومنذ هذا التاريخ تدخل أوربة ويدخل العالم فى عصر الاستكشافات الكبير ، فتُكْتَشَفُ أستراليا وجزر المحيط الهادى . وتتعاقب الاستكشافات فى القارات القديمة والقارات الجديدة . ويسجِّل القرن الماضى انتصاراً رائعا للأوربيين ، فلا يبقى نهر فى إفريقية إلا يُكْتَشف مَصَبُّه ، ولا تبقى صحراء كبيرة إلا يذرعونها طولا وعرضاً ، ويسيرون فى مناكبها وجوانبها الغامرة . وتمتد آمالهم إلى القطبين الشمالى والجنوبىّ ، وتنجاب أسرارهما .

وفى هذا القرن العشرين يصبح للطيارة فصول فى الرواية . رواية الكشف عن العالم ومجاهله ويغدو كأنه كتاب مقروء . فلا يبقى فيه طِلَّسم ولا لغز ، بل تُحَلّ كل طلاسمه وألغازه . وحسبنا الآن أن نَعَرِض ما كان للعرب فى هذا الميدان من جوْلات ، لاشك أنها كانت المقدمات لهذه الانتصارات الباهرة على مجاهل الأرض والبحار ، وإن فيها لأنصع البينات على محبة العرب للمغامرات والمجازفات .